عبد اللطيف حبيب في (قبل أعوام)

باسم عبد الحميد حمودي

عبد اللطيف حبيب واحد من رجال الصحافة العراقية الذين أعطوا الكثير من جهدهم لمهنة المتاعب منذ خمسينيات القرن الماضي حتى وفاته في نهاية الثمانينيات.

عمل عبد اللطيف حبيب محرراً وسكرتيراً لتحرير عدد من الصحف العراقية منها (البلاد) جريدة الصحفي الرائد روفائيل بطي و(الاستقلال) جريدة الصحفي الكبير عبد الغفور البدري وفي صحف متعددة أخرى.

أمتاز قلم عبد اللطيف حبيب بالرشاقة الأدبية وبالقدرة على صياغة الخبر ووضع خلفية خبرية له وبالقدرة على التخطيط للمشاريع الصحفية الجديدة واستحداث أبواب جديدة تضخ الدم إلى المطبوع وتجعله أقرب إلى حاجات الناس واهتماماتهم، وكان أبو أسامة قادراً على تحريك الصحفيين الشباب وتوجيههم للبحث عن الأخبار الجديدة في وقت لم تكن فيه وكالات أنباء معتمدة في العراق سوى رويترز والشرق الأوسط، وكان عدم وجود وكالة أنباء عراقية يدفع المحرر الأخباري للاعتماد على الراديو للحصول على الخبر وعلى تمتين العلاقة مع الوزراء والمسؤولين للحصول على مصادر أخبار محلية في وقت كانت فيه وسائل تسجيل الخبر تعتمد على خط اليد واختصارات الصحفي الخاصة للكلمات والمصطلحات إذ لم يكن المسجل (الريكوردر) قد وصل العراق إلا في الستينيات وكانت جريدة البلاد التي عمل فيها عبد اللطيف حبيب سباقة في استخدام هذا الجهاز الذي يبدو بدائياً اليوم في عصر الانترنت.

كان عبد اللطيف حبيب أستاذ جيل من الصحفيين وموجهاً ممتازاً لهم وقد كتب القصة والمقالة الأدبية وهو في كتيبه هذا الذي نقدمه للقراء قد اتجه للكتابة في التراث الشعبي العراقي مستعرضاً بعض العادات والتقاليد والشخصيات الشعبية وقد قام المركز الفولكلوري في وزارة الإرشاد العراقية (تأسست بعد ثورة ١٩٥٨) بطبعه ضمن مشروع (المكتبة الفولكلورية) التي أشرف عليها السادة عبد الحميد العلوجي ود. أكرم فاضل ولطفي الخوري الذي كان مسؤولاً مباشرة عن المركز الفولكلوري الذي غابت جهوده فيما بعد نتيجة لسوء التخطيط وعدم الاهتمام بالثقافة الشعبية.

صدر هذا الكتيب عام ١٩٦٢ وهو تاريخ متقدم في الدراسات الفولكلورية العراقية الحديثة وقد حوى الكتيب على فصول عن (الملا) و(الساقي) و (الأزياء) ولعبة (الساس) وتقاليد الانضمام إلى تجربة (الهلاي) ومعنى (الخيرة) و(الكبسة) أو (الجبسة) ولا تستطيع صفحة (ذاكرة) أن تحيط بكل الفصول لذا اخترنا الفصول الأخيرة من (قبل أعوام) كتحية وفاء للصحفي الرائد عبد اللطيف حبيب واستذكاراً لتلك التفاصيل الشعبية الجميلة التي كانت.. منذ أعوام.

المكتبة الفولكلورية (٥)

قبل أعوام

صور قلمية.. من تراثنا الشعبي

تأليف / عبد اللطيف حبيب
يصدرها مركز الفولكلور العراقي في وزارة الإرشاد - بغداد ١٩٦٢

من رسوم الكتاب التوضيحية

الهلاي

ليس بالأمر البعيد أن يجيء حصاد هذه الصورة مترعاً بالذكريات الحية في نفسي، والحية في نفوس الكثيرين من هم في مثل عمري أو أقل أو أكبر - وقد عدت تواً من الجبال.. جبال راوندوز ترقرق خيالها على مياه العيون بين بواسق الصفصاف وبواسق الجوز، وقد لألأت الشمس على الذرى والمنحدرات والمنابت واستفاض في الأفق الأزرق أريج الربيع.

ليس بالأمر البعيد أن يجيء الحديث يا صديقي القارئ عن يوم من أيام الربيع هذه وقد تكشفت البيوت والمنازل في سرة بغداد عن نسائها وفتياتها ورجالها وشبابها فخرج فريق إلى المقاهي القريبة وراح فريق إلى المناحي البعيدة، وترى هذه الجموع الزاخرة تريد أن تبحث عن "ضالة".. وقبل أن أحدثك يا صديقي عن - ضالة - هذه الجموع، تعال خذ يدك بيدي، تعال إلى أواسط أطراف باب الشيخ توافد سكانها إلى ناحية طبال يقرع طبله، تكأكأ عليها التقي الورع وغير الورع، وفي ناحية من الطبال حمير وبغال على ظهرها تحف وطرف في طريقها إلى بلد لم يكن يصل إلا بشق الأنفس سلمان باك!!

تعال يا صديقي القارئ إلى جوار الطبال هذا نتعرف إلى رجال كان يدل مظهرهم على نبل وشهامة كما كان يدل حديثهم على صدق وصراحة، رجال حضروا إلى صوت قعقعة الطبل من بني سعيد، ومن قنبر علي، ومن قهوة شكر، ومن الفناهرة ومن سبع أبكار، ومن الجوبة، وتتبع النظرات إلى ابعد مدى من الحمير والبغال وما تحمل على ظهورها إلى.. "برشقات" تتدافع على سطحها نسوة وفتيات ومن تحتهن أمتعة متباينة وأطعمة مختلفة.

تعال يا صديقي نبحث عن مكان آخر نوالي النظر، ونرهف السمع لنشهد كيف تسير كوكبة هذه الناس إلى سلمان باك.. إنهم يتصايحون وثمة أعلام منشورة هنا وهناك.. "من أبو صالح لبو داود أجينا" وآخرون ينشدون! "المايزوره السلمان عمره خسارة"..

وهكذا تظل الكوكبات وعلى ظهور "البرشقات".. طوال الطريق إلى سلمان باك، أشتدت حماسة الدفوف والطبول وانيرت شموع كبيرة وصغيرة وعلت من جديد هوسات:- "المايزوره السلمان عمره خسارة - وارتفعت في الجو الأعلام وانطلقت المسدسات وامتدت الأيدي إلى السيوف والخناجر وتعالت الزغاريد من كل مكان ونفر فريق من الرجال والشباب إلى الطواف حول طاق كسرى، ونفر فريق منهم إلى زيارة مرقد حذيفة اليماني على ضفاف نهر دجلة المار قبل أن ينقل جثمانه إلى جوار مرقد سلمان الفارسي، على حين تأخذ النساء والفتيات في نصب الخيام في الفلوات وإشعال أقباس النار، وبعد أن يفرغ الرجال والشباب من الحومان حول طاق كسرى، وزيارة مرقد حذيفة اليماني، يعودون إلى جامع سلمان الفارسي ينشرون على مرقده - ستارة - خضراء حملوها معهم من بغداد، وأكثرهم يهتف "مبارك استارتك يا سلمان" ويتجاوب مع الهتاف زغاريد النسوة والفتيات داخل الجامع وخارجه.. ومن حول هؤلاء وأولئك صبية في فرحة العيد.

وإذا كان المساء ونشر الليل ذوائبه، وتبين في كبد السماء سلطان الليالي علت في الآفاق أشياء جديدة.. نقرات الطبلة - الدنبك - وغناء.. ميحانه.. ميحانه، غابت شمسنا الحلو ما جانا.

إلى هنا أحاول أن أقف قليلاً لأذكرك يا صديقي القارئ بالإشارة التي أشرت إليها في صدر هذا الكلام عن - الضالة - تختفي مرة أخرى لتنتهي معي إلى أن - الضالة - تختفي وراء هذه الأغنية ترسل في الجو إرسالاً على سجيتها.. هل فطنت إلى ما أريد أن أقول؟!.. غابت شمسنا الحلو ما جانا..

هل تبينت الآن.. لماذا كانت تنطلق النفوس إلى الأماكن القريبة، والبعيدة؟! هل عرفت الآن.. لماذا كان كل ذلك الجهد، ولماذا كان كل ذلك التعب والعناء؟!.. ولكنه يجيء دون شك ولو كان دون ذلك شوك القتاد.

وأرى من الخير أن تسألني يا صديقي القارئ عن "الهلاي" وأنت ترى أن الهلاي لم يذكر في سياق الحديث من قريب أو بعيد و- الهلاي - يا صديقي... هو - الطبل - يتكاكا عليه الناس من كل جانب، إيذاناً بالمسير إلى المناحي القريبة أو البعيدة، وأبعد هذه المناحي هي.. سلمان باك والضالة في واقع الأمر - ليلى - سواء أكانت ليلى من الطين أو ليلى من الخشب.. وإن جاء نشدان ليلى عن طريق يبعد عن الذهن الكثير من الشكوك والريب، فالخروج إلى سلمان باك وفي أيام الربيع يحسب في ظاهره على أنه تقليد لعادات موروثة.. ولكنه في باطنة تنفيس عن كبت وإن غالط المكابرون.. البحث عن ليلى الليالي.

الخيرة

الم تستمع يا صديقي القارئ، وأنت تجلس في بيتك بين ذويك في صدر النهار، أو صدر الليل، ألم تستمع يا صديقي وأنت زائر أحد صحبك عند الضحى، أو عند الليل، بجرس ناعم يقرأ أو تقرأ لك الفنجان عن ذكريات ماضية، أو حياة تنتظرك؟!

الم تستمع يا صديقي حديث.. قارئ أو قارئة الكف؟! ألم تخفف كلمات ذلك الحديث أوجاعك وآلامك.. وتهدئ روعك ويأسك؟!..

حينما أذكرك يا صديقي أمام قارئة الفنجان أو قارئه.. حينما أذكرك أمام قارئ الكف أو قارئته، أقارن بين "خيرة" و"خيرة".. ولكن مالي وللمقارنة ازدحمت في صدري، وأنني إنما أبحث لك عن صور شعبية تسللت لي من ماض بهي.

وهذه الصور الشعبية، أو الطباع الشعبية، أوشك بعضها أن يتداعى، وبعضها الآخر لا يزال على صموده. ولعلك أخذت يا صديقي تبحث عن - الخيرة - قبل أعوام بعد هذا الكلام! وهذا هو حديثي أفتح لك ابوابه..

إني محدثك عن خيرة القرآن قبل كل شيء.. واقسم لك أني رأيت هؤلاء الذين يجرون على هذه الخيرة، يخافونها ويهابونها ويتأملون ما يفتح الله به عليهم.. وهم إذا عثروا على سؤالهم - الخيرة - جاوزت فرحتهم المدى، وإذا لم يبلغوا سؤالهم منها قالوا.. لا يسوغ لأمرئ أن يرفع رأسه إلى خيرة القرآن.

وطريقة خيرة القرآن.. هي أن يضمر السائل كلاماً في قلبه، ويفتح صفحة من القرآن، ويتلو السطر السابع من أول الصفحة.

وخيرة الكتاب.. خيرة أخرى، يتولاها هؤلاء الرجال الذين أندسوا في الطرقات، جالسين وقاعدين، أو سائرين ومارين،.. يضع صاحب السؤال يده على غلاف الكتاب، ويده الأخرى تدس الدرهم أو أكثر أو أقل منه إلى قارئ الكتاب، ويفتح هذا صفحة من كتابه كما يحلو له ويقرأ دون ترتيب أو تعيين، والسائل يتسمع ما يتلى عليه ان خيراً فخيراً وإن شراً فشراً.

والكتاب هذا، واحد من كتب وضعها رجل لا يزيد عن قارئ الكتاب علماً ومعرفة بالدين والدنيا، وقد يكون أقل منه شأناً في هذه المضامير، ولكنه لا يأنف أن يطلب الخيرة من آخر أدنى منه.. وأنه لعزاء لا أقل ولا أكثر للمطامح الإنسانية والمطامح الآدمية.

وثمة خيرة.. خيرة السبحة- أو المسبحة -، ويضمر السائل كلاماً في قلبه، ويأخذ أما السائل نفسه، أو من يرعى سؤاله، في تفريق حبات السبحة - أو المسبحة - وهو يحرك شفتيه.. الله.. محمد... علي... أبو جهل.. وإذا سقطت الكلمة الأخيرة على أبي جهل من بين الحبات التي مسكها السائل بين يديه كانت طامته.. وإذا سقطت كلمته على الله، كان حسبه وكفى بالله شهيداً وحامياً وراعياً.

وخيرة.. أخيرة.. خيرة الطريق، وهي أثيرة عند المرأة بوجه خاص إنها تدنيها من شهرة تطمح إليها، أو تقربها من رجاء تحب تحقيقه.

وعندما أقول المرأة، أعني العموم.. المرأة الولود.. والمرأة العانس.. والعذراء.. تسأل المرأة، تربها المرأة.. تسأل امرأة.. امرأة.. قولي أراضية أنت عن زواجك، وتشعر السائلة والمجيبة، بل وتشعر المصغيات إلى هذا السؤال من أخوات أو بنات أن من أرضى الأماني إلى النفس إلا تحبس لسانها عن الصراحة، وتبتسم المرأة ابتسامة تنم عن رضى، ويهز الأخرى شيء عن ماضيها، وتدمع عيون الأخريات ويحزبن على الخروج إلى الطريق للخيرة، ولا تعرف الواحدة منهن أي قلب تحمله الثانية بين جنبيها وأي هاجس يمر بخلدها.

والخروج إلى الطريق.. يجري عادة - ليلة الجمعة - قبل أداء صلاة العشاء وتجلس النسوة تحت كنف حيطان الجوامع، يتسقطن أحاديث ومضات تنم على شيء كثير من الخوف والألم، وتظل نظراتهن تستجدي الرحمة والشفقة وهن قابعات متدثرات بالعباءات السود من الصوف أو الأطلس أو الجيناوي والمانيره ويتخافت صوتهن..

وقد تنتهي الخيرة إلى نهاية ممضة حتى لقد تضرب النساء الأمثال بسوء طالع المرأة الفلانية أو المرأة الفلانية، ويتحامين ذكرها.. كل ذلك، لأن شخصاً مر في طريقه وهو يحاور صديقه بقوله: "لو أعلك العشرة شمع تبدل الزين بشين".. أو يقول: "راحت ارجال اجنت ازامط بيها" أو يقول.. "هاي بعيدة متصير".. وكل هذه الأقوال قد تجري على لسان المارة دون قصد.. وقد تجري بقصد.. قصد التحرش بالنسوة صاحبات الخيرة.

وقد تنتهي - الخيرة - إلى نهاية مترعة بالرضى والاطمئنان، حتى لقد تضرب النساء الأمثال بحسن طالع المرأة الفلانية أو المرأة العلانية، ويذكر أسمها في كل وسط.. وكل مجلس.. كل ذلك، لأن شخصاً مر في طريقه وهو يحاور صديقه بقوله "راح يصير على كيفك" أو يقول "مكضية" أو يقول "بعد العسر، يسر.. وبعد كل ضيق فرج".

تنتهي - الخيرة - على هذا المنوال، وتعود المرأة إلى بيتها، وهي تذكر إلى صويحباتها.. "النية صافية" "أخذ فالها من روس رجالها" أو تقول.. "صلوات.. رياجيل فايتين بدربهم أعرفهم يعرفوني، حجوها بخيطها وأبرتها".

الكبسة

الكبسة - لغة.. الهجمة فجأة، وتنطقها العامة: الجبسة - والعامة يا صديقي القارئ لا تقف عند حد استبدال حرف بحرف، فهي تتوسع في التصريف وتقول..انجبس وينجبس ومجبوس في التذكير، و- انجبست ومجبوسة - في التأنيث.

والحديث عن الكبسة أو - الجبسة - حديث التقطت أخباره من عجوز في السبعين أو تزيد عرضت لي على الطريق وقد أخذت يداها تجمعان نفايات الورق من أبيض وأصفر وخطر لي أن أسألها عن حاجتها إلى هذه النفايات وفتحت فمها وأخذت تقص.

كنا ونحن صغار نرقب ما تعمله أمهاتنا وجداتنا، وكان أقصى همهن أن تطمئن المرأة التي يخسرها الموت أولادها إلى مصائر أولادها الآخرين وأن لا يموتوا ميتة أخوانهم - كان الموت يخطف الأطفال قبل أن تنفتح شفاههم للضحك.

كان الموت يحضر، والأم تلمسه بيدها وترعش رعشة باردة، ووليدها.. يخضل جبينه بعرق شديد وتنظر ذات اليمين، وذات اليسار، كأنها تبحث عن معاذ يمنع الموت، وفي تلك الأثناء تصيح صيحات مألوفة، أو تلطم خديها وتردف: - مجبوس..-.

وتلوح - الجبسة - للأم وهي تحدق في وجنة وليدها وقد غشيت - زرقة - من فرع إلى قدم، أو غمرته موجة عاتية من السكون المطبق.. وشبح الموت.. يخرس لسان الأم، ويخلع عليها الذهول، وتفزع إلى أدوية - الجبسة - مخافة أن يأكل الموت الحاصد وليدها، فلا تمر بها ساعات، حتى تراها في سوق - اليمنجية - تنظر إلى نفايات الجلود من أصفر واسود وأحمر، وتختار منها ما تشاء، دون حساب، ثم لا تلبث أن تنقلب راجعة إلى البيت لتضع نفايات الجلود داخل خرقة وتدسها تحت وسادة الوليد وكأنها جاءت له بأكسير الحياة، أو كأنها لفظت الموت في هذه الجلود الصفراء والسوداء والحمراء..

ومن الأمهات من توجس شراً في نفايات الجلود هذه، وتنحدر إلى - صبابيغ الآل - وقد تجهم وجهها حتى ليخيل إلى من يراها أن شبح الموت مطل عليها، وتأخذ بين يديها قطعة من قماش، وأمام دكان الصباغ تغمس أحد أصابعها في براميل الصبغ وتبدأ في تنقيط القماش بما يتيسر لها من أصباغ ملونة، ولم تنس في أثناء ذلك أن تشكر الصباغ بالدعاء لأولاده، وتشعر بقليل من العزاء وهو يلقي عليها بالدعاء لوليدها كذلك، وتعود إلى طفلها - المجبوس - ترد عنه غزوة - الجبسة - بإلقاء قطعة القماش المصبوغة بنقاط حمر وسود وصفر على جسد طفلها المسجى على الفراش.

ومن الأمهات من ترى دفع - الجبسة - يحمل الطفل - المجبوس - إلى طوب أبو خزامة وإدخال رأس الطفل في فوهة الطوب..

نعم.. يا صديقي القارئ، كانت ترى الأمهات أن إدخال رأس الطفل في - فوهة طوب أبو خزامة - كفيل بحمايته من مخابث - الجبسة -.

ومن الأمهات من تتجدد في نفسها المخاوف، وترتقي بأبنها أعلى إحدى المآذن في غير خوف أو ذعر ولا تجد في شيء آخر يتولى حماية ابنها ويمنع عنه - الجبسة - إلا هذا السبيل.

ومن الأمهات من تخالف هذه الأدوية وتكتفي بإمرار الطفل من تحت قدر كبير منصوب على حجارة تلتقطه من يدها إحدى النسوة، ويشترط في القدر أن يكون موروثاً!.

وقد يؤخذ الطفل إلى جسر ويعبر به - سبع جساريات - ولا أقل ولا أكثر!.

وشيء كان ينبغي علي أن أقصه يا صديقي القارئ قبل أن نلحق إلى نهاية الكلام أو نكاد.. أن- الجبسة - تكون في حالتين، أولاهما عقيب الولادة، ثانيهما أبان - الحصبة - والأم ترى في هذه - الأفاعيل - أدوية تمنع عن وليدها أسوأ - الجبسة -، وهناك من يرشد الأم إلى أن تغسل وليدها في اليوم الثالث من - الجبسة - بماء الشنان - ممزوجاً بجلود اليمنيات - الصفراء والسوداء والحمراء الملتفة بخرقة، أو بقطعة القماش المصبوغة بالنقاط الملونة.

وكثيراً.. وكثيراً جداً، ما تضيع هذه التوسلات سدى، - وإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون..

ولا أدري، إذا كنت - وأنا وليد - قد مررت بمثل هذه الأدوار أم لم أمر، وأكبر الظن أني مررت.. إن لم يكن في أكثرها فاقلها، ويستطيع أبني - أسامة - بعد سنوات أن يضحك ما شاء له الضحك وهو يقرأ أن اباه طوف بخرافات.. ثم يدعو له بالرحمة، ولا ينسى أن يدعو لأجداده المساكين أيضاً بمثل ما دعا لأبيه.

غلاف الكتاب